ابراهيم باشا في حروبه

للأستاذ كمال السيد درويش

لقد كان ابراهيم باشا قائداً حربياً ممتازاً ، كان ميالا للحروب منذ نشأته المبكرة ، وكان كما وصفه معاصروه : « شديد الشغف بالقتال ، ولا يطيب نفساً إلا في جو الحروب » ، جو المعارك الطاحنة والمواقع الفاصلة ، ذلك الجو المملوء بالعمل والنشاط والحركة اضطلع ابراهيم بالحملات التي أسندت إليه منذ شبابه ، وكان النصر حليفه في كل ميدان من الميادين التي خاضها . توجه إلى قتال الوهابيين ، وكانوا عدواً صعب المراس شديد الحماس ، يسيطر على شبه جزيرة العرب ، قد أسكرته خمرة الانتصار على جيوش والي العراق ، كما أسكره التحرر من حكم العثمانيين ، وكان عجز السلطان عن إخضاعهم من عوامل بعث الثقة في نفوسهم وتقوية إيمانهم بمذهبهم الجديد حتى أصبحوا يرون أنفسهم على الحق ، والعالم الإسلامي كله على الباطل !

هذا هو العدو الذي توجه ابراهيم لقتاله ، ولقد نجح في إسدال الستار على تلك الحركة الوهابية ، وعلى تلك الدولة الفتية ، بعد أن استولى على عاصمتها الدرعية . وعاد قاهر الوهابيين وحاكم بلاد العرب إلى مصر لتتلقاه بأهازيج النصر والفخار .

ونظر ابراهيم فوجد محمد علي قد أسند إلى الكولونيل سيف مهمة إنشاء جيش حديث ، فلا يجد غضاضة ، وهو القائد المظفر ، في الانضمام كجندي عادي إلى الجيش الحديث ، ويتجه الكولونيل سيف في لهجة الآمر إلى أن مكانه — لقصر قامته — في آخر الصفوف لا في أولها . ويدرك ذلك ابراهيم فيطيع أمر رئيسه في الحال .

ويذهب إلى السودان بعد ذلك ليساعد أخاه اسماعيل في إكمال فتحه ، ثم يحول المرض بينه وبين إتمام مهمته ، بعد أن وصل إلى قرب نهر السوباط فيعود إلى مصر من جديد .

وتشتد الثورة في اليونان ، ويعجز السلطان عن إخضاعها ، فيلجأ إلى تابعه القوي محمد علي باشا الذي يسند قيادة الحملة إلى نجله ابراهيم .

وكانت ثورة اليونانيين كثورة الوهابيين ، كلتاهما كانت تلهبه الحقيدة ويشعله الحماس . كانت الحرية أنشودة الثوار ، بل أنشودة الشعوب الأوربية بأسرها ضد الحكومات الرجعية التي كانت تجثم فوق صدرها . ولذلك كان العدو الذي واجهه ابراهيم في بلاد اليونان كالعدو الذي واجهه في بلاد العرب مستميتاً في كفاحه ، مستبسلاً في نضاله ، مضحياً بكل ما لديه ، ومع ذلك استطاعت الجيوش المصرية تحت قيادة ابراهيم أن تتغلب على قوات الثوار بالرغم من تأييد الشعوب الأوربية لها .

ويعود ابراهيم من حرب اليونان ليستعد لخوض أعظم معركة في كفاحه الحربي الطويل ، وليسطر أروع الصفحات لا في تاريخه العسكري فحسب ، بل في التاريخ العسكري خلال القرن التاسع عشر .

عاد ابراهيم ليخوض الحرب ضد جيوش السلطان نفسه ، فتسقط على يديه مدينة عكا الحصينة ، ثم يهزم العثمانيين بعد ذلك في دمشق ، ثم يستولي على حمص وحلب ، ويقضي على الجيش العثماني في بيلان ، ثم ينتصر انتصاراً حاسماً في قونيه ، ويتوغل في بلاد الأناضول حتى يصل إلى كوتاهيه ، وينزل السلطان مضطراً على شروط الصلح ، وعند ذلك تبدأ عبقرية ابراهيم كإداري في الظهور ، فيلتفت إلى بلاد الشام لتنظيمها من جديد ولانتشالها من الفوضى والانحلال .

ويعود السلطان إلى دس الدسائس وتحديه ، فيتقدم ابراهيم إلى جيش السلطان ، ويقابل قائده حافظ باشا في نصيبين ، وتبدأ الوقعة ولا تستمر سوى ساعتين حتى كان القائد العثماني قد ترك مع جيشه إلى الفرار .

هذه نظرة عامة نلقيها على حياة ابراهيم التي ملئت بالكفاح والنضال ، حتى إذا أنعمنا النظر قليلاً راعتنا عبقريته الحربية وأيقنا أنه لم ينجح هذا النجاح إلا بعد أن اتخذ له من الخطوات ما هو كفيل بتسجيله .

لم يحارب ابراهيم أعداءه فقط ، بل كان وهو في بلاد العرب يحارب ضد الصحراء القاسية بما فيها من جبال وهضاب وكثبان وأعاصير طالما اتخذت الخيام فتركت الجند في العراء يصلون حر نهارها الشديد وبرد ليلها القارس . وفي بلاد اليونان حارب ضد الجبال المرتفعة والأنفاق العميقة والوديان العميقة ، والعدو خبير بذلك كله متمرس به وبالجزر المنتشرة في ذلك البحر ، تحيط بها أمواجه فتحميها وتحميه وتنتشر بينها قراصنته حتى تترصد العدو

لتوديه . وكذلك حارب فى هضبة الأناضول وفى فصل الشتاء ، وحدثت موقعة قونيه ودرجة الحرارة فوق الصفر بقليل .

كان ذلك فى الحادى والعشرين من شهر يونية سنة ١٨١٨م حين كان أحد الجنود يوقد النار فأطارتها العاصفة على معسكر الجيش فاشتعلت إلى خيمة منصوبة على قرب من مستودع الذخيرة فاحترقت الخيمة وامتدت نارها إلى المستودع فانفجر لساعته ونسف ذلك الانفجار من القنابل والرصاص ما ذهب بنصف ذخيرة الجيش ، ودب الذعر ، واختل النظام ، وكاد الموقف الرهيب يودى بالحملة كلها . فالجيش يحاصر الدرعية عاصمة الوهابيين ، وصحراء نجد تحيط به من جميع الجهات ، والعدو يتنبه على صوت الانفجار فيتهيأ لانتهاز الفرصة وتجديد الهجوم .

ولكن ابراهيم يقابل خبر الكارثة وحرب الطبيعة بصدر رحب وثبات عجيب ، ويتطلع إلى حوله من القواد والجند نظرة الواثق من الفوز ، المتأكد من النصر ، ثم يقول فى صوت هادئ عميق : « لقد فقدنا كل شىء ، ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا فلنتدرع بها ، ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض » !

وكان ذلك فى يوم ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ حين تمكنت بعض سفن اليونانيين من الاقتراب من ميناء مودون حيث كانت بعض سفن أسطول ابراهيم راسية ، واستطاعت الحراقات اليونانية خلسة إشعال النار فى سفينة من تلك السفن المصرية ، وكانت الريح شديدة ، فاشتعلت النار إلى باقى السفن ، وتعذر إطفاؤها ولم ينج بحارتها إلا بعد عناء شديد ، وخسر ابراهيم معظم سفنه فى هذا الحريق ، وامتدت النار إلى المدينة ، فتناولت مخازن البارود فنسفتها أيضاً ؛ ومع أن ابراهيم كان يشدد حصاره على المدينة فى ذلك الحين ، فقد تقبل ضربة الطبيعة وغضبها بنفس الروح التى تقبل بها ضربتها أمام الدرعية ، واستمر يقاتل أمام أسوار مودون حتى استولى عليها .

أما بعد ، فهذه بعض المواقف التى تجلى فيها ثبات ابراهيم أثناء حروبه ، ذلك الثبات الذى كان له أكبر الأثر فى تغيير مجرى الحوادث وإظهار عبقرية ابراهيم كقائد حربى ممتاز .

كمال السيد درويش
مدرس بمدرسة الرمل الثانوية
وعضو الجمعية التاريخية بكلية فاروق

اسألى سحرك ..

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

آه من لحن على نهديكِ لم أعزفهُ آه !
شاردٌ عن سحر أوتارى كأحلام الحياه
كلما أطلقتُ روحى خلفهُ فى الصدر تاه
وغنيه .. واسمعى مثلى الأغانى من هواه
ودعينى فى الليالى السُّود أمشى فى خُطاه
واتبعينى ، فأنا دربٌ بعيدٌ منتهاه

آه من طير على جفنيكِ لم يهدأ بأيكِ
ضاربٌ فى أفق الأحلام ، مظلومٌ لديك
كلما همَّ ، لواهُ صائدُ السِّحر إليك
اتركيه كيفما شاء يُغنى فى يديك
واتركينى أتلاشى نغمةً فى جانبيك
أخطف السرَّ وأمضى طائراً سرٌّ عليك

آه من ليلٍ رهيب فى خيالى من ملايكْ
مُترعٍ بالشكِّ والأوهاد فى جنبيَّ حالك
خيمت منه معانٍ لاهنيات فى خيالك
أسألينا ، فهى تدرى ما الذى طاف ببالك
واسمعينا ، عُرَفاً تسوى على ذكرى وصالك
يوم كنا فى سبيل الحب نشتاق المهالك

آه من نهر بأعطافك مرهوبِ النواحى
رحتُ فى أمواجه أُلقى من الشوق جراحى
وأنادى الرَّبع ، لو هبت بناى وصباح
وصلاةٍ لشراعى فوق هامات الرِّياح
اتركى الزَّورق يجرى فيه نشوانَ الجناح
ودعيه سابحاً ما شاء فى تلك البطاح

تسألينى ... لِمَ لم يشغلك عن حبى شاغل ؟
اسأل الطير ... علامَ الأيك فى جنبيه عادلْ ؟
واسأل النهر ... علامَ الموجُ فى شطيه زاجل ؟
واسأل بحركِ من أجراهُ فى قلبى جداول ؟
واسأل الماضى فما زالت به تتلى المراجلْ
واسأل نفسكِ من أغرى على الحبِّ المطاولْ